



خطبة صلاة الجمعة 9/5/2014 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكى

(أخطاء شائعة -14- سيطرة منهج الهجاء على السلوك العام)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليته، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كرهه، اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْقَلِبْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286]

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نَكَّتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ، زِيدَ فِيهَا، حَتَّى تَغْلُوَ قَلْبُهُ، وَهُوَ الرَّأُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: 14]» [أخرجه الترمذي].

هذه هي الخطبة الرابعة عشرة في سلسلة: (أخطاء شائعة).

هدف السلسلة السعي لتصحيح ما استطعنا من هذه الأخطاء، فإن الله تعالى لا يهلك قريةً أهلها متناصحون مصلحون ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

تتناول السلسلة خطأً في العلاقات الأسرية مرةً، وشعارها: (أسرتي سكاني ومسؤوليتي) وخطأً في معاملاتنا المالية مرةً أخرى، وشعارها: (أسواقنا مرآة ديننا).

وخطبة اليوم من النوع الثاني، وعنوانها: (سيطرة منهج الهجاء على السلوك العام).

راجع سعيدٌ طبيباً للنظر في حالته الصحية، ولما لم يتعافَ، راجع طبيباً آخر مصطحباً أوراقه الصحية والأدوية الموصوفة له، استغرب سعيد جداً من الطبيب الثاني عندما سمعه يهجو الطبيب الأول الذي كتب له هذه الأدوية ناعتاً له بأنه لا خبرة له بالطب ولا بالعلم!.

اشترى خالدٌ آلة تسجيل، وأحب أن يعرضها على جاره المتخصص بالأدوات الكهربائية، فدهش لدمّ جاره لها ولدعوته إلى ردها؛ ليشتري له بديلاً عنها خيراً منها بمائة مرة وبالسعر ذاته!.

هجا موظفٌ مديره أمام زميله، ففوجئ زميله يُثني على المدير ويمدح فعالة، فما كان منه إلا أن أجابه: إنك جديّد في العمل ولستَ تعرفَ شروره، وستبدي لك الأيام سوءه.

كان محمدٌ طالباً في مدرسةٍ عامةٍ، ولما تحصّل على علاماتٍ متدنية في الفصل الدراسي الأول، راح يهجو المدرسين عامةً والنظامَ الإداريَّ والتعليمي في المدرسة، وهكذا فعل أخوه طالبُ الجامعة عندما لم يستطع ترفيع مواد الفصل الأول.

أيها الإخوة:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يحسّنُ الحسنَ فيقويه، ويستترّ القبيح فيوهيه.

إذا رأى جميلاً نشره، وإذا رأى قبيحاً ستره؛ لأنّ بُعدَ الرذيلة عن الضوء والماء يُذبلُها بل يذهبها.

من هنا رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يمدحُ أمانةَ أبي عبيدة بن الجراح، وإيمانَ عمار، وصدقَ أبي ذر، وقوةَ عمرَ في الحق، وحسَنَ صحبةَ أبي بكر.

يقول صلى الله عليه وسلم: «**إن لكل أمةٍ أميناً، وإنّ أميننا -أيُّها الامّة- أبو عبيدة بن الجراح**». [البخاري ومسلم]

ويقول: «**مُلئ عَمَّارُ إِيْمَاناً إِلَى مُشَاشِهِ**» أخرجه النسائي.

ويقول: «ما أَظَلَّتِ الخضراء، ولا أَقَلَّتِ العُبراءُ أَصَدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ» أخرجه الترمذي.

ويقول: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عَمْرٍ، يَقُولُ فِيهِ». أخرجه أبو داود.

ويقول الأبى بكر: «أَنْتَ صَاحِبِي عَلَى الْخَوْضِ، وَصَاحِبِي فِي الْغَارِ». أخرجه الترمذي.

ولم نره صلى الله عليه وسلم يهجو مسلماً ولا ينشر ذميمةً ولا يشيع مثلبة.

كل هذا منه صلى الله عليه وسلم نشرًا للفضائل وطياً للنقائص.

ومن هنا قرأنا في كتب الحديث أبواباً للفضائل فيها أحاديث كثيرة عن فضائل الرجال والأعمال والأمكنة والأزمنة، ولم نقرأ أبواباً للمثالب والعيوب والنقائص.

ذلك؛ لأنَّ الإسلامَ يحب أن تُشيع الفضيلة ونطوي الرذيلة، نعلن الخيرَ والحقَّ ونطمُرُ الشرَّ والباطل.

فإذا رأيتَ منهجَ الهجاء غلبَ على السلوك العام، وأسلوب الذم فشا في الأسواق التجارية، فهذا خطأ ينبغي أن نصحَّحه.

كل هذا -أيها الإخوة- إذا كان الهجاءُ لوصفٍ حقيقيٍّ لا تخيليٍّ، والذمُّ بالصدق لا بالكذب، أما عندما يكون الهجاءُ كذباً وتخيلاً فهو نوع من الافتراء قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: 116].

كتب بعض الباحثين في علم الاقتصاد:

(عندما نتحدث عن سلوك الإنسان فإننا ولا بد وأن نسلّم بوجود بعض النقص أو الخطأ في الأفكار أو السلوكيات، فلكل إنسانٍ ولكل عملٍ إيجابياته وسلبياته وكلما زادتِ النقاطُ الإيجابية كان العملُ جيداً... لكنَّ سيطرةَ منهجِ الهجاء على بعض الناس في تعاملهم بكل ما يخص الآخرين من عملٍ وإبداعٍ أصبح يهددُ بالخطر كلَّ جديدٍ وكلَّ نافعٍ وكلَّ نشاطٍ إبداعيٍّ... فمنهجُ الهجاء يعمدُ إلى تحطيمِ الشخصِ أو العملِ، ويحاولُ تجريده من كلِّ حمْدَةٍ وكسوتهُ بكل نقيصةٍ.

والمفترض في التوجه الإسلامي التناصح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» [مسلم].

فالمسلم يسعى لعون أخيه في أعماله المهنية والإبداعية؛ فيسعى لتقويم ما اعوجج منها، وسد ثغراتها، وترميم سقطاتها عوناً لأخيه على إنجاحه بدلاً من اعتباره عدواً لدوداً ينبغي تحطيمه بكل الطرق وبكل الأساليب).

أراد النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة أن يعمي الأخبار على قريش؛ حتى يفاجئهم بالفتح؛ ليجتنب التقاء جيش بجيش حتى لا يشيع القتل ولا تسفك الدماء، كتب واحداً من الصحابة كتاباً إلى قريش يخبرهم الخبر، وكان في الكتاب: (أما بعد، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل، وأقسم بالله لو لم يسر إليكم إلا وحده لأظفره الله بكم، وأنجز له مواعده فيكم، فإن الله وليه وناصره).

وأرسل الكتاب خفية مع امرأة، فأعلم الله تعالى رسوله بالأمر.

روى الأئمة واللفظ لمسلم عن علي رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد، فقال: (اتتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها) فانطلقنا نعدى بنا خيلنا، فإذا نحن بالمرأة، فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب. فأخرجته من عقاصها.

فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة... إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا حاطب ما هذا؟» قال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنتُ أمراً ملصقاً في قريش -أي حليفاً لهم، ولم يكن من أنفسهم- وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «صدق». فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: 1].

فمع أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم اطلَّع من الصحابيِّ على عملٍ يستحقُّ الذمَّ والهجاءَ ما أراد أن يفشُو هذا المنهج في المسلمين، وقَبِلَ منه اعتذاره، ووكلَهُ إلى إيمانه.

أيها الإخوة:

عندما يستشير رجلٌ مهندساً في عامل طلاء، فلا ينبغي أن يهجو المهندسُ عاملَ الطلاء؛ لأنه ليس من عُمَّاله، بل عليه أن يكون مُنصِفاً في ذكر الإيجابيات والسلبيات.

وعندما يشتري رجلٌ داراً لا يستقيم لسمسار العقارات أن يدُفَّ له البيعة لينقلب عليها؛ لأنه لم يشتَرِ من عنده، ويدفع له عمولة الشراء بل دفعها لجاره.

وعندما يتعيَّن موظفٌ في شركة لا يجوز لزوجة صاحب العمل أن تذمَّ الموظفَ؛ لأن لها قريباً تريد تعيينه عند زوجها في مكان هذا الموظف.

وفي كل هذا شيءٌ من معاني حيث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يَبِيعُ بعضُكم على بيع بعض**» [البخاري ومسلم] ونستطيع أن نتفهَّم الربطَ بين هذا العمل وأثره على الأخوة والترابط الاجتماعي في السوق التجاري.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تَحَاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِيعُ بعضُكم على بيع بعض، وكونوا عبادَ الله إخواناً، المسلمُ أخو المسلم، لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، التقوى ها هنا -وبشير إلى صدره ثلاث مرات- بِحَسْبِ امرئٍ من الشرِّ: أن يَحْقِرَ أخاه المسلم، كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ: دمه، وماله، وعرضه**» [البخاري ومسلم].

أيها الإخوة:

سيطرة منهج الهجاء على السلوك العام خطأ والصواب التناصح والتعاون.

نسأل الله أن يعيننا على تصحيح أقوالنا وأفعالنا حتى يعجل لنا بالفرج.

والحمد لله رب العالمين.